مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(٢ تيموثاوس ٣:١٠–١٥)

يا ولدي تيموثاوسَ إنَّك قد استَقَرَيْتَ تعليمي وسيرتي وقصدي وإيماني وأناتي ومحبَّتي وصبري* واضطهاداتي وآلامي وما أصابني في إنطاكيةَ وإيقونيةَ ولِسترة. وأيَّةَ اضطهاداتٍ احتملتُ وقد أنقذني الربُّ من جميعها* وجميعُ الذينَ يريدون أن يعيشوا بالتقوى في المسيحِ يسوعَ يُضطهَدون* أمَّا الأشرارُ والمُغوونَ من الناسِ فيزدادونَ شرًّا مُضِلّينَ ومُضَلّين* فاستمرَّ أنت على ما تعلَّمتَه وأيقنتَ به عالِماً مِمَّن تعلَّمت* وأنَّك منذ الطفوليَّةِ تعرِفُ الكتبَ المقدَّسةَ القادِرةَ أن تُصيِّرَك حكيماً للخلاصِ بالإيمانِ بالمسيحِ يسوع.

تواضع القديسين

يقول الرسول بولس في رسالته إلى أهل فيليبي: «فليكُن فيكم هذا الفكر الذي في المسيح يسوع أيضاً: الذي إذ كان في صورة الله، لم يَحسبْ خُلسةً أن يكونَ مُعادلاً لله. لكنَّه أخلى نفسه، آخذاً صورةَ عبدٍ، صائراً في شبه الناس، وإذ وُجد في الهيئةِ كإنسانٍ، وضع نفسَهُ وأطاع حتى الموت موت الصليب. لذلك رفَّعه الله أيضاً، وأعطاه اسماً فوق كلِّ اسمٍ لكي تجثو باسم يسوعَ كلُّ رُكبةٍ ممَّن في السماء ومَن على الأرضِ ومَن تحت الأرض، ويعترف كلُّ لسانٍ أنَّ يسوع المسيح هو ربٌّ لمجدِ الآب» (فيليبي ٢: ٥–١١).

تواضع القديسين هو سلّم ارتقائهم إلى ذرى الحياة الروحية ومفتاح وُلوجِهم إلى كمال المحبة بالمسيح. هو فضيلة ترافق مسيرة أصفياء الله على الأرض ويتزيّا بها كل مَن عرف المسيح عن قرب وذاق عذوبة الشركة معه وحلاوة الاتحاد الكامل به. ذلك أن السيد نفسه كان «وديعاً ومتواضع القلب»، وهو أكّد في الإنجيل أن «مَن رفع نفسه اتّضع، ومَن وضع نفسه ارتفع» (لوقا ١٨: ١٤) ، راسماً بهذا الكلام السبيل إلى معرفة الله الحقيقية وإمكانية الثبات في حالة النعمة والقرب من الله.

يقول القديس إسحق السرياني: «التواضع هو وشاح الألوهة، لأن الكلمة المتجسد تسربله وكلّمنا عنه من خلال أجسادنا. فكل مَن يتسربله يتشبّه حقاً بذلك الذي انحدر من علوّه وغطّى فضيلة عظمته بالتواضع وستر مجده به كي لا تلتهب الخليقة بمنظره، لأن الكلمة لو لم يتّخذ جسداً بشريًّا لما استطاعت الخليقة أن تراه وجهاً لوجه ولا أن تسمع أقوال فمه».

العدد ٢٠١٤/٦
الأحد ٩ شباط
وداع دخول السيد إلى الهيكل
أحد الفريسي والعشار
تذكار الشهيد نيكيفوروس
اللحن الثامن
إنجيل السَحَر الحادي عشر

ويعلّم آباء الكنيسة القديسون أن الكبرياء هي جذر كلّ خطيئة. هي مرض النفس الذي يفصلها بالكامل عن الله. بالكبرياء تتبدّد كل محبّة في حياة الإنسان، فتسود فيها الأنانية والظلمة. أما بالتواضع فتُطرد الشياطين وتحصل غلبة القديسين في الحرب الروحية. يقول القديس أنطونيوس الكبير: «إني رأيت الشيطان ناصباً فخاخه على الأرض كالشباك، فقلت ليتني أعلم مَن ذا الذي يخلص؟! فسمعت صوتاً قائلاً لي: بالتواضع يا أنطونيوس

الإنجيل

(لوقا ١٨: ١٠-١٤)

قال الربُّ هذا المَثَل. إنسانان صعِدا إلى الهيكل ليُصلِّيا أحدُهما فِرّيسيٌّ والآخرُ عشَّارٌ* فكان الفريسيُّ واقفاً يصلّي في نفسه هكذا: أللَّهمَّ إنّي أشكركَ لأنّي لست كسائر الناس الخَطَفةِ الظالمين الفاسقين ولا مثلَ هذا العشَّار* فإنّي أصوم في الأسبوع مرَّتينِ وأُعَشِّرُ كلَّ ما هو لي* أمَّا العشَّار فوقف عن بُعدٍ ولم يُرِدْ أن يرفعَ عينيه إلى السماء بل كان يقرعُ صدره قائلاً: أللَّهم ارحمني أنا الخاطئ* أقول لكم إنَّ هذا نزلَ إلى بيته مُبرَّراً دون ذاك. لأنَّ كلَّ مَن رفع نفسه اتَّضع ومَن وضع نفسه ارتفع.

تأمل

لماذا تتكبّر أيها الإنسان؟ انزل من أعالي كبريائك الغبي وافحص تفاهتك. أنت تراب ورماد، دخان وظلّ، عشب وزهر الحقل. ما المضحك أكثر تغلب كل هؤلاء!» ويخبرنا الأدب الرهباني أن الشيطان ظهر مرّة وخاطب القديس مكاريوس المصري قائلاً: «أنت يا مكاريوس تصوم كثيراً ونحن لا نأكل أو نشرب شيئاً! أنت تسهر في الصلاة ونحن لم نذق النوم من آلاف السنين... لكنك أنت تتواضع وهذا ما يحرقنا»!

يقول القديس بورفيريوس الرائي: «الشيطان هو المغرور وكوكب الصبح الأكبر، وعندما نكون مغرورين، فإننا نعيش الشيطان في داخلنا لا التواضع. التواضع من الله وهو شيء ضروري لنفس الإنسان، إنه شيء فعّال، وغيابه يشبه فقدان القلب من جسم الإنسان. القلب يعطي الحياة لنظام الجسم، والتواضع يعطي الحياة للنفس».

التواضع هو معرفة القديس ووعيه لحاجته إلى المسيح. وهو ثمرة التجاء الإنسان إلى الله وإلى معونته. هو نتيجة الصلاة الصادقة التي يعبّر الإنسان فيها عن فقره الروحي والأخلاقي أمام السيّد. يقول القديس إسحق السرياني: «إذا أدرك الإنسان أنّه يحتاج إلى المعونة الإلهيّة يضاعف صلواته. وبمقدار ما يضاعفها يزداد قلبه تواضعاً، لأنّ مَن يطلب ويسأل يتواضع رغماً عنه: «القلب المنسحق والمتواضع لا يرذله الله» (مز ٥٠). وما دام القلب فاقداً التواضع فلا يمكنه التوقّف عن التّشتّت، لأنّ التواضع يضبط القلب. عندما يصبح الإنسان متواضعاً تحيط به الرحمة حالاً، ويحسّ قلبه بالمعونة الإلهيّة، لأنّه يجد قوّةً مليئةً بالثّقة تتحرّك فيه. ومتى أحس الإنسان بالمعونة الإلهيّة، أي بحضور قوّةٍ مساعدة، يمتلئ قلبه بالإيمان ويدرك أنّ الصلاة ملجأٌ وعونٌ وينبوع خلاص».

تواضع القديسين مرآة صافية لمحبتهم للمسيح. هو انعكاس كامل لإنسانية المخلص، للطبيعة البشرية التي شُفيت من كل أدران الخطيئة لمّا تواضع ابن الله وصار إنساناً. تنازل فصار الجسد البشري مسكناً لمجد الإله المثلّث الأقانيم. مثل هذا التواضع هو الطريق الوحيد إلى الاتحاد الكامل مع الله. هو أعلى نقطة في حياة الفضيلة والمحبة. هو نوع من التأني والحساسية المرهفة التي تختصّ بعلاقة القديسين مع الله والخليقة ومع أخيهم الإنسان.

يروي الأرشمندريت صفروني سخاروف، تلميذ القديس سلوان الآثوسي وكاتب سيرته أنه في الأيام الأخيرة من حياة القديس سلوان، حين كان القديس قد بلغ أعلى مراتب الكمال الروحي، «في الخامس عشر من شهر أيلول ١٩٣٨، صباح يوم الخميس وحوالي العاشرة صباحاً، سعيت باحثاً عنه في قلايته، فوجدته جالساً على كرسيٍّ بجانب طاولةٍ صغيرة، متغيّر السّحنة فسألته: «أيها الشيخ، ما بك؟ أجاب: أشعر بتعب. سألت: ماذا بك؟ قال: لا أعرف. نهض من كرسيّه وجلس بثقل على سريره، متّكئاً على الحائط، ثمّ تمدّد جزئيًّا ملقياً جسده على ذراعه الأيمن، وكان الألم مرتسماً على وجهه. سألته: أيها الشيخ، هل ستموت؟ فكان جوابه: لم أبلغ بعد إلى التواضع...».

من أنّك تفتخر؟ هل تتسلّط على أناسٍ كثيرين؟ وماذا تستفيد عندما تتسلّط على أناسٍ وتتسلّط عليك أهواؤك؟ أنت مثل ذاك الذي يضربه خدّامه في بيته لكنّه في السوق يبدو مفتخراً، لأنّ لديه آخرين تحت سلطته. يا ليتك كنتَ متسلّطاً على أهوائك وندًّا لأولئك الذين تصادفهم في السوق. إذاً، إن كان كلُّ مَن يتباهى بفضائله الحقيقيّة مستحقًّا اللوم، أليس في السّياق نفسه مضحكاً كلّ مَن يتكبّر لأجل أشياء تافهة كلّياً؟

أيها الإنسان الشّقيّ! إنّ نفسك تذوب من المرض المخيف، أي مرض الخطيئة، وأنتَ تتباهى بأموالك وممتلكاتك الكثيرة؟ لكنّ هذه الأموال والممتلكات ليست لك، وإن لم تصدّق كلامي، فانظر ماذا حدث لأولئك الذين عاشوا قبلك. وإن كنت ما زلت سكراناً بالغِنى أو بالمجد ولم تتعلّم من مصائب الآخرين، انتظر قليلاً وستعرف، مِمّا يصيبك، بطلان الممتلكات

التقوى والإضطهاد

تدخل الكنيسة المقدسة ابتداءً من هذا اليوم زمن التريودي، وفي هذه الفترة تحضّرنا الكنيسة من خلال الصلوات للدخول في الصوم الكبير الأربعيني المقدس، حيث نمضي في مسيرة نخلع فيها الإنسان القديم ونلبس الجديد للوصول إلى فرح القيامة. تُدخلنا الخِدَم الكنسيَّة في جوٍّ يركز فيه المؤمن انتباهه ويتسلَّح بصلواته وأصوامه ليخوض الحرب اللامنظورة ضد شهواته وملذاته، ليبني ذاته ويصل إلى ملء قامة المسيح.

يشدِّد الرسول بولس في رسالته الثانية إلى تيموثاوس على حياة التقوى في المسيح يسوع (٢ تيمو ٣: ١٢). فالتقوى ليست هي الحركات الجسديّة التي يبالغ بها الإنسان في الكثير من الأحيان أثناء الصلاة، إنما هي الأمانة في أداء الواجبات الدينيّة، هي العبادة الحقيقيّة لله وحده وليس لكي ينظرها الناس. هي العبادة الداخليّة التي تناجي الله بالتوبة قائلة: «يا ربي يسوع المسيح ارحمني أنا عبدك الخاطئ». ومثالاً على ذلك، مَثَل الفريسي والعشار. فالفريسي الذي كان يبدو مبرَّراً خرج مُداناً أمَّا العشار فظهر مبرَّراً.

يربط الرسول بولس التقوى بالإضطهاد، «فجميع الذين يريدون أن يعيشوا بالتقوى في المسيح يسوع يُضطَهَدون» (٢ تيمو ٣: ١٢). التقوى الحقيقية والكاملة في يسوع المسيح هي تلك المزدوجة بالصعاب والأتعاب والجهادات، «لأنّه لا يوجد رجل يسلك طريق الفضيلة دون حزن ووجع وتجارب» كما يقول القديس يوحنا الذهبي الفم، «أليس جهادٌ للإنسان على الأرض وكأيام الأجير أيامه» (أيوب ٧: ١).

يقول القديس مكاريوس الكبير: «الطريق المسيحيّة تكون هكذا: حيث الروح القدس هناك شبه ظلام، اضطهاد وحرب: أنظر كيف أن الأنبياء الذين فعل فيهم الروح اضطهدهم أبناء جنسهم. أنظر كيف أنَّ الربَّ الذي هو الطريق والحق لم يضطهده جنس غريب بل خاصته. اضطهده أبناء إسرائيل وصلبوه. كذلك الرسل بعدما حلَّ عليهم الروح القدس وعلى كل المسيحيين اضطهدهم اليهود واستشهد الكثير من المسيحيين». أمّا القديس يوحنا الذهبي الفم فيقول «لا يمكن للمصارع أن يحيا بالتنعّم ولا يمكن للمجاهد أن يستمتع. فالحياة الحاضرة تقتضي الجهاد، الحرب، الحزن... إنَّها حلبة الجهادات. الزمن الحاضر ليس للراحة، هو زمن الأعراق والأوجاع. لا أحد ممن عُرّي للقتال ودُهن بالزيت يطلب الراحة، فلا بدَّ أن تضبط الشهوات وأن تقاوم هيجان الطبيعة».

يعود سبب ارتباط التقوى بالإضطهاد إلى أمرين كما يفسر أحد اللاهوتيين. أولاً لأنَّ التقوى لا تقتصر فقط على حسن تقديم العبادة والذبائح لله، بل تشمل أيضاً علاقة الإنسان بأخيه الإنسان. العبادة ليست في التقديمات وحسب إنما بحفظ الوصايا أي العمل بها، وبالتالي هي في طاعة إرادة الله من خلال حفظ وصاياه كدليل على محبتنا له. فعندما نهمل الآخر ونهتم فقط بمظاهر العبادة الخارجية، نقع في التقوى المزيفة وتصبح عبادتنا لله غير مرضية لله.

والملذّات الأرضيّة. عندما ستذهب من هذا العالم الموقّت لن تجد تحت سلطانك ولا ساعة واحدة، إذ إنّك ستترك كلّ ما تملكه للآخرين رغماً عنك، ربما لأولئك الذين لم تكن قبلاً تريد رؤيتهم.

إنّني أقول لك ثانية: ليس الإنسان ولا الأشياء الإنسانيّة سوى ترابٍ ورمادٍ ودخانٍ وظلٍّ وحلم. قل لي ما الذي تعتبره كبيراً؟ هل هو منصب سياسيّ؟ أيّ منصب؟ هل هو منصب الحاكم الأعلى؟ طبعاً كثيرون يعتبرون أنّه لا يوجد منصب أعلى. إذاً، ليس لدى الإنسان الذي لم يرتفع إلى درجة الحاكم شيء أقلّ ممّا لذاك الحاكم، فالإثنان قائمان في الحالة الإنسانيّة نفسها، والإثنان أيضاً لن يوجدا بعد قليل.

القديس يوحنا الذهبي الفم

ثانياً وبما أنّ التقوى الحقيقيّة تتمثّل في محبة القريب، فإنّ ممارستها تجلب لنا حياة اضطهاد، إذ إنّ الحياة في المسيح هي حياة غريبة عن حياة العالم، والمسيحي المؤمن يسير عكس تيار الحياة الفانية وظروفها. اليوم نعيّر مَن يركب على الصلاة والصوم ومطالعة الكتب المقدسة مطلقين عليه لقب «القديس» استهزاءاً به وهذا نوع من الاضطهاد. أما الصعوبة الثانية فتتمثّل في مصائب الناس وآلامهم التي تحيط بنا من كلّ جهة، والمصائب والآلام قد تطردان روح التقوى لدى الإنسان. التقوى الحقيقيّة إذاً هي تلك التي تصبر على الشدائد، والإنسان التقي ليس مَن يحمي ذاته من فساد العالم فحسب بل مَن يسعى جاهداً إلى رفع الفساد من حياة أخيه الإنسان أيضاً، كلٌّ حسب طاقته.

من هنا عرفت الكنيسة منذ البداية ولغاية يومنا هذا العديد من الإضطهادات الظرفيّة المتمثلة بالظروف الخارجيّة لحياة المؤمن وبيئته والتي فُرضت على الكنيسة، وما أكثرها في عالمنا المضطرب، والإضطهادات الطوعيّة التي حملتها الكنيسة من خلال إيمانها بيسوع المسيح، من خلال المحافظة على الإيمان القويم في وجه الهرطقات المختلفة.

قراءتنا للكتب المقدسة تقوّم مسيرتنا الخلاصيّة لأنّها هي التي تصيّرنا حكماء كما يقول الرسول بولس في رسالته (٢ تيمو ٣: ١٥) فمَن يعرف الكتب المقدسة لا يتعثّر في أي أمر يحدث له. يقول القديس نيقوديموس الآثوسي: «الكتب المقدسة تصبح الدافع للمسيحيّ ليفتش عن خلاصه، والذي لا يسعى إلى هذا الهدف بل إلى المجد والغنى واللذة أي إلى أهداف عالمية يصبح تعبه باطلاً ومعرفته دينونة».

«عندما انغلب الفريسي من المجد الفارغ والعشار انحنى بالتوبة أقبلا إليك أيها السيد الواحد إلاّ أنّ الواحد لما افتخر أُعدم الخيرات والآخر من غير أن ينطق استحق المواهب، فبهذه التنهيدات ثبّتني أيها المسيح الإله بما أنّك محب للبشر» (من إينوس أحد الفريسي والعشار».

من أقوال الآباء

+ قالوا عن الأب أشعيا أنه حمل وعاءه ومضى إلى البيدر وقال للفلاح: أعطني قمحاً. أجابه الفلاح: وهل حصدت أنت أيضاً يا أبتِ؟ قال له الأب أشعيا: كلا. فقال الفلاح: كيف تريد إذاً، أن تحصد من حيث لم تزرع؟ فقال الأب: إذا لم يزرع الإنسان ألا يتقاضى أجراً؟ أجابه الفلاح: كلا. وهكذا عاد الأب أدراجه إلى قلايته. فلما رأى الإخوة ما فعل سجدوا له ورجوه أن يقول لهم لماذا فعل هكذا. قال لهم الأب: لقد فعلت هذا للعبرة، حتى يفهم مَن لا يعمل أنه بدون العمل لا ينال جزاء من الله.

+ سُئل الأب أشعيا: ما هي محبة الفضة؟ قال: هي عدم الإيمان بأن الله يهتم بك، واليأس من وعوده، ومحبة الافتخار والعظمة.

+ سُئل أيضاً: وما هو الغضب؟ قال: انه الجهل والخصام والكذب.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:
www.quartos.org.lb